Türkiye Diyanet Vakfı
Kütüphanesi

العابدة الخاشعة
رابعة العدوية
إمامة العاشقين والمحزونين

تأليف

دكتور عبد المنعم الحفنى

Türkiye Diyanet Vakfı
İslâm Araştırmaları Merkezi
Kütüphanesi
Demirbaş No: 234823
Yasin No: 922.397
R.Ak

حقوق الطبع محفوظة للناشر

الطبعة الأولى

١٩٩١ م ـ ١٤١١ هـ

دار الرشاد

طبع . نشر . توزيع

١٤ شارع جواد حسنى القاهرة ت : ٣٩٣٤٦٠٥ - ٣٩٩٤٦١٥

❀ ❀ ❀

قلوب العارفين لها عيـــــون
تـــرى ما لا يراه الناظرونـــا
وألسنة بِسِرٍ قـــــد تَنَـــاجَى
تَغـيبُ عـــن الكرام الكاتبينـــا
وأجنحةٍ تطيرُ بغير ريـــــش
إلى ملكوت رب العالميـــــنا
فتسقيها شراب الصدق صرفا
وتشرب من كؤوس العارفينا

❀ ❀ ❀

بسم الله الرحمن الرحيم

ربى يسر

من الشخصيات المحورية فى التصوف الإسلامى **رابعة العدوية**، وهى صاحبة فضل وفكر ومدرسة. والقراءة فى الشخصيات النبيلة والعظيمة تُعدى بالنبل والعظمة. والتصوف غذاء روحى، و**رابعة العدوية** روحانية وراهبة من راهبات الفكر الصوفى الأصيل. وهذا الزمن الذى نعيشه ماأحوجنا فيه إلى جرعات روحية تحيى فينا موات الآمال وتتنزل بها علينا السكينة والطمأنينة. وهذا زمان القلاقل والصراعات، وقيل فيه إنه عصر القلق، ويبدو أن طابع الشخصية العصرية صار هو الطابع العصابى، وماأكثر مايحتاج شبابنا وشيوخنا، ونساؤنا ورجالنا، إلى مَنْ يذكرنا باستمرار بالقيم الروحية، ويُوعينا بماضينا، ويؤملنا فى غد أكثر إشراقاً. ونحن لايمكن أن نكون خلقنا عبثاً أو طُرِحْنا فى الوجود اطراحاً من غير غاية يترسمها الخالق ولاهدف ولا علّةَ. والإنسان مقدور عليه أن يعيش وجوده أسْيانا من بين كل المخلوقات، فهو الوحيد الذى يعى الحرية، والذى يطلبها ويستشعر المسئولية ويقبل بالواجبات. وهو يحتاج للآخرين ولكنه معهم فى شِقاق وعداء، والآخرون بالنسبة له هم الجحيم وإن كان يحاول باستمرار أن يجعل وجوده معهم فى وئام، ويجاهد مع ذلك أن لايفقد نفسه وتتميع ذاته، وأن تكون له استقلاليته، والآخرون يريدونه تابعا وأن يزيفوا وجوده. و**رابعة العدوية** وجودها أصيل لم يتزيف، وفكرها استقلالى، وذاتها متوحدة، وما أحرانا أن نضع أعيننا على أمثالها وأن تصافح آذاننا كلماتها ونتمثلها ونحن نصنع حياتنا. والقراءة فى **رابعة** وعنها نَسْمة نَسْتَرْوحها ونحن نعانى من هذا اللهيب المتقد الذى تلفحنا به صحفنا اليومية والإذاعات من حولنا، والذى تحترق به أفئدتنا ويوغر منا القلوب بالحقد والضغينة. والحديث عن **رابعة** وفلسفتها وشعرها يلذ

للمتعبين والحيارى. ومأجدرنا أن نلتمس كتابا من الكتب الحافزة بين الحين والحين كلما أدلهمت أمورنا واغتمت لها نفوسنا واضطربت منا الأفكار. وقد اخترت أن اقرأ كتابا للدكتور **عبد الرحمن بدوى**، وهو من أساطين مفكرينا، عن **رابعة العدوية** باسم **شهيدة العشق الإلهى**، فكأنى لم اقرأ هذا الكتاب من قبل، وكأنى لم أعرف هذا المفكر العملاق معرفتى لأبى أو أكثر، ولقد تتلمذت عليه وأخذت عنه. وأسلوب الدكتور بدوى جزل ومُشَوّق، وانتقاؤه للألفاظ انتقاء العالم باللغة وأسرارها، فللمعانى ماييناسبها ويَقْوَى على حملها من الألفاظ التى تزيد من وضوحها ولألائها. وهو يسوق الأمثال ويحلّق بالقارئ فى آفاق المعرفة ويختار الحكايات من مختلف الثقافات، ولاتملك نفسك كقارئ إلا أنْ تعجب من مهارته وعلمه وأستاذيته. وأنت إذ تجرى بعقلك على السطور تتابع أفكاره وتلاحق صوره تحب منه تشبيهه **للبصرة** حيث ولدت وعاشت وماتت رابعة العدوية بأنها **فينسيا العربية** ترف كالآل الزاخر بالتهاويل فى رؤى الساغبين اللاغبين الضاربين إليها من أعماق الفيافى فى قلب الجزيرة العربية، حتى إذا بلغوها وأناخوا الإبل عند المربد دخلوا المسجد الجامع من باب البادية فبهرتهم دقة الأساطين وبراعة الفن، وجلّوا بأبصارهم المغبرة بالرمال إلى النقوش المترفة فاستشعروا مساً مما ينتظرهم على الجانب الشرقى حيث السفن الزاهية تنحدر من الشمال قادمة من بغداد فى نهر معقل، والجوارى المنشئات فى الخليج تمخر عباب نهر الأُبُلة متصاعدة فى وقار وقد وُفّرت بأثمن السلع المحّملة إليها من الهند والصين. وتلك هى البصرة فى العهد الذى عاشت فيها رابعة. كانت نقلة بين البادية والحضر، والخشونة الزاهدة الصلبة القاسية الإيمان والترف الناعم الهائم فى أوداء القداسة الشهوانية، ومن ثم جاءت مزيجا من هذين الطرفين المتباعدين فى تخطيطها ومساق الحياة فيها، فكانت روحها مسرحا لمأساة هذا الازدواج المتوتر العنيف فى طبيعتها، وبهذا الاستقطاب طبعت نفوس ساكنيها، ففى روح كلٍ تسكن طبيعتان متعارضتان، إحداهما تتلمس غذاءها من قوت الحواس، والأخرى تستشرف إلى قوت القلوب، ولن تستطيع إحداهما القضاء على الأخرى بل سيظل التعارض قوياً عنيفا، وفى عنفه يقوم ذلك التوتر الحى الذى يجعل من حيواتهم مصدرا للتشويق لايقل فى قيمته عن مذاهبهم، فإلى جانب الحياة اللاهية التى عمرت بها القنوات والمتاجر مما كان خير إطار لقصص ألف ليلة وليلة، كانت هناك الربُط التى تشيع فيها الزهادة والقداسة. وإلى جانب

الأسواق الصاخبة بمشاغل المادة وشئون الدنيا كانت المساجد والمكتبات العامة بمثابة معابد الفكر الرفيع، ففى ساحة السوق حيث ضجيج الأعمال وعقد الصفقات واختلاط الأجناس وأسباب الترف كان يقوم المسجد الجامع الثانى، فإذا تزود مَنْ بالسوق من أفخم السلع أوى إلى المسجد فطاف على حلقاته، فهنا حلقة النحويين واللغويين يحتدم فيها الجدل الصارخ حول شاردة من شوارد اللغة قذف بها فى جمعهم كوفى جاء محّملا بأسلحة أهل بلده. وهناك مجلس الحسن البصرى تسوده رهبة ذلك الزاهد الجليل وهو يلقى مواعظه الضاربة فى فيافى الزهد فيستدُر الدمع من مآقى الحاضرين، أويستحيل إلى مجلس ذكر تتردد فيه الأذكار الصافية والأدعية الناضرة، أو تثار فيه مسائل من التوحيد سرعان ماتشيع الحرارة فى هذا الجو الرقيق. فإذا ماجَنّ الليل وسكن الأحياء وجُسْتَ فى المدينة ترامت إلى مسمعك أنغام اللهو العنيف فى نفس الوقت الذى يقرع أذنيك فيه تضرعات المتهجدين القانتين. وهنا اللاهون ويمخرون بزوارقهم الزاهية فى مياه تلك القنوات المتشابكة، يعزفون ويعربدون، وهناك فى زاوية أخرى ترى العابدين سادرين بين المقابر يستهلمون الموت والقبر أفكارا وموضوعات للتأمل الحزين والعظمة البالغة والعزوف عن الدنيا. وهنا أمثال إبن أبى عيينة يقضون الليالى البيض فى أحضان الشهوة الآثمة، وهناك أمثال رياح بن عمرو القيسى ممن لم يكن يعرف غير البكاء والتهجد والتضرع والصراخ من أعماق الهاوية إلى الله!

وبمثل هذه المقدمة الشعرية يستهل الدكتور بدوى بحثه، وله دائما مصطلحاته وألفاظه من مثل التوتر الحى والذوات الوجودية الزاخر باطنها بممكنات التفتح على المجهول. وهو دائما فى كل كتاباته المبدع، وكان كتابه عن رابعة إبداعا أيما إبداع، ورسم صورة للبصرة لانملك ونحن نراه فيها يؤكد على جانبى الصراع وعلى التناقض فى البصرة البلد والناس إلا أن نخمن أن ذلك نفسه هو رأيه أيضا فى **رابعة العدوية** وحياتها وجهادها النفسى والفكرى، فهى عنده الصوفية التى بدأت حياتها وقد أوغلت فى الإثم والحياة الحسية حتى التهب منها الجسد فتطهرت روحها فى عذاباته. **فهل كانت رابعة كذلك؟ وهل كانت فى مبتداها بائعة هوى تهفو لأن تتوب فلما كان أوان التوبة أنابت وأصلحت وعاشت متبتلة وصارت من أعلام التصوف وصاحبة مدرسة فيه ورائدة فى مجال كانت فيه المعلمة لأفذاذ الرجال؟ هل رابعة كذلك؟**

أسئلة لابد أن تُحسم لأنه لم يعرف عن بائعات الهوى أن من الممكن أن يتبن ويبلغن فى نوبتهن حد التصوف وهذه الدرجة الرفيعة فيه حتى لتكون الواحدة صاحبة مدرسة فكرية!

هل منهج الاحتمال والترجيح والتأويل المسرف الذى اتبعه الدكتور بدوى هو المنهج السليم الذى يمكن الركون إليه ونحن نؤرخ لأمثال رابعة؟ ولربما ما ألجأ الدكتور بدوى إلى هذا المنهج قلة المادة التاريخية عن حياتها تضارب الآراء بشأنها، ولربما أيضا أن هذا المنهج نفسه هو ماينا سب الدكتور بدوى يطرح نظريته فى رابعة مدعما بها مذهبه هو نفسه فى الفلسفة. والملاحظ أن اختياره لشخصيات التى يؤرخ لها فلسفيا هو اختيار ليس من فراغ ولكنه مقصود، وذلك أنه من خلال هذه الشخصيات فإنه كان دائما يشرح فلسفته ويزيدها وضوحا. ويبدو أنه من اللازم قبل كل شئ أن نزيد القارئ معرفة برابعة بأن نورد أقوال المؤرخين فيها وفيما ستحدثته فى الفكر الإسلامى مما يروى عنها من حكايات وأقوال ومأثورات ومحادثات مع كبار الصوفية من المشايخ المشهود لهم بالصلاح، ومناقشات مع أعيان البصرة ومفكريها مما يجعلها شخصية أسطورية يختلط فيها الخيال بالواقع، فهل يكون هذا الكتاب الرائع للدكتور بدوى أيضا كتاباً قد أختلط فيه الخيال بالواقع؟ سنرى ...

❀ ❀ ❀

الفصل الأول
رابعة فى كتابات الشرق والغرب

- ١ -

فى الشرق

❀ ❀ ❀

كان **الجاحظ** أول من كتب مؤرخا لرابعة. والجاحظ (١٦٣ - ٢٥٥هـ) عاش فى البصرة فى زمن قريب من زمنها، وله التصانيف الكثيرة ومنها **الحيوان، والبيان والتبيين**، وكان من أئمة الأدب ومن شيوخ المعتزلة، وأطلق عليه بعضهم اسم معلم العقل والأدب. ولربما سمع الجاحظ برابعة فى صغره، ولربما رآها رأى العين. ولاشك أنه سمع عنها ممن رأوها وعاينوها من المفكرين والأدباء. وهو يذكرها فيقول : ومن النساء (يقصد من أهل البيان) **رابعة القيسية**. ويقول فى موضع آخر أنه : قيل **لرابعة القيسية** لو كلمنا رجال عشيرتك فاشتروا لك خادما يكفيك مؤونة بيتك، فقالت والله إنى لأستحى أن أسأل الدنيا من يملك الدنيا، فكيف أسألها من لايملكها! ويقول الجاحظ على لسان سفيان الثورى : وقلت لرابعة القيسية هل عملت عملاً قط ترين أنه يقبل منك؟ فقالت : إن كان كل شئ فخوفى أن يُرَدّ علىّ. ويقول أيضا عن نسبها وزهدها : ومن آل عتيك **بنو عدوة** ولهذا **تسمى العدوية**، وأما كنيتها **فأم الخير بنت إسماعيل**. وبذلك يحدد الجاحظ نسبها ويذكر سبب تسميتها بالقيسية مرة وبالعدوية أخرى، ويؤكد اسم أبيها وهو إسماعيل.

❀ ❀ ❀

وفى **طبقات ابن الملقن** يذكر أن هناك سمّية لرابعة، وربما يكون اسمها **رايعة**، وهى **زوجة لأحمد بن أبى الحوارى** (١٤٨ - ٢٣٠هـ) الصوفى الشامى، واسم أبيها

إسماعيل أيضا، وكانت عابدة كرابعة العدوية أم الخير بنت إسماعيل البصرية مولاة آل عتيك، وهى الصالحة المستورة من أعيان عصرها، وفضلها مشهور وكانت **وفاتها سنة ١٣٥هـ**، ودفنت **بظاهر القدس من شرقيّه على رأس جبل يسمى جبل الطور**.

❀ ❀ ❀

ويذكرها **الزركلى فى أعلامه** فيقول إنها **رابعة بنت إسماعيل العدوية**، توفيت سنة ١٣٥هـ، وهى **أم الخير مولاة آل عتيك** البصرية، صالحة مشهورة من أهل البصرة، ومولدها بها، ولها أخبار فى العبادة والنسك، ولها شعر، ومن كلامها : اكتموا حسناتكم كما تكتمون سيئاتكم. وتوفيت **بالقدس**، وقال **ابن خلكان** وقبرها يزار وهو بظاهر القدس من شرقيه على رأس جبل يسمى الطور، ووفاتها سنة ١٣٥هـ كما فى شذور العقود **لابن الجوزى**، وقال غيره سنة ١٨٥هـ. (وفيات الأعيان الجزء الأول ص ١٨٢، والشريشى الجزء الثانى ص ٢٣١، والدر المنثور ص ٢٠٢. وفى مجلة لغة العرب أن للسيدة مرجريت سميث الإنجليزية كتاباً عن رابعة العدوية رجحت فيه وفاتها سنة ١٨٥هـ وقالت إنها عاشت وتوفيت ودفنت بالبصرة).

❀ ❀ ❀

وفى **كتاب الروض الفائق فى المواعظ والرقائق للشيخ الحريفيش** المتوفى سنة ٨٠١ هـ يقول فى المجلس السابع والعشرين **فيما يجلو القلوب من القسوة بذكر أخبار النسوة** أن الله تعالى قال وهو أصدق القائلين «ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات»، وقال تعالى «إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات، أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما» فقرن الله سبحانه وتعالى ذكر النساء الصالحات بالرجال الصالحين. وللنساء أحوال وزهد وخير وصلاح كما فى الرجال. وفى النساء من لهن الأوراد والسياحات والكشف، وغير ذلك من الخصوصيات التى خصهّن الله تعالى بها كمن مضين منهن فى الصدر الأول **كرابعة العدوية وشعوانة وريحانة وأم الخير** وغيرهن من النساء المشهورات وغير المشهورات، كما حُكِىَ عن

رابعة العدوية رحمها الله تعالى أنها كانت إذا صلت العشاء قامت على سطح لها وشدت عليها درعها وخمارها ثم قالت : إلهى نارت النجوم ونامت العيون وغلّقت الملوك أبوابها وخلا كل حبيب بحبيبه، وهذا مقامى بين يديك! ثم تقبل على صلاتها، فإذا كان وقت السحر وطلع الفجر قالت : إلهى! هذا الليل قد أدبر، وهذا النهار قد أسفر، فليت شعرى أقبلت من ليلتى فأهنأ، أم رددتها علّى فأعْزى؟ فوعزتك هذا دأبى ماأحييتنى وأعنتنى! وعزتك لو طردتنى عن بابك مابرحت عنه لما وقع فى قلبى من محبتك. ثم أنشدت.

ياسرورى ومنيتى وعمادى	وأنيسى وعُدّتى ومرادى
أنت روح الفؤاد أنت رجائى	أنت لى مؤنس وشوقك زادى
أنت لولاك ياحياتى وأنسى	ماتشتت فى فسيح البلاد
كم بدت منّة وكم لك عندى	من عطاء ونعمة وأيادى
حُبك الآن بغيتى ونعيمى	وجلاء لعين قلبى الصادى
ليس لى عندك ماحييت براح	أنت منى مُمَكَّن فى السواد
إنْ تكن راضيا علّى فإنى	يامُنى القلب قد بدا إسعادى

ثم يحكى **الحريفيش** عن قصة لها مع ذى النون المصرى على لسان صوفى يدعى سعد بن عثمان فيقول إنه كان فى تيه بنى إسرائيل (أى سيناء) وإذا بشخص قد أقبل فقلت ياأستاذ! شخص قد أتى. فقال لى أنظر من هو، فإنه لايضع أحد قدمه فى هذا المكان إلا صدّيق. فنظرت فإذا هى امرأة، فقلت إنها امرأة، فقال صدِّيقة ورب الكعبة. فابتدر إليها وسلّم عليها، فقالت ماللرجال ومخاطبة النساء؟ فقال أنا أخوك ذو النون ولست من أهل التُّهَم، فقالت : آية من كتاب الله عز وجل، قوله تعالى ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها، فقال لها صفى لى المحبة، فقالت سبحان الله! أنت عارف بها وتتكلم بلسان المعرفة وتسألنى عنها؟ فقال لها : للسائل حق الجواب، فأنشدت تقول :